من مظاهر الإعجاز القرآنيّ (1)

بلاغة التَّقديم والتَّأخير في القُرآن الكريم

الفرع الأوَّل: الأصل في التَّركيب التَّرتيب:

التَّركيب في اللغة العربيَّة قسمان: جملةٌ اِسميَّةٌ وجملةٌ فعليَّةٌ، والأصل في عناصر هذه الجمل التَّرتيب؛ فإذا كانت الجملةُ اسميَّةً، كان الأصل في ترتيبها تقدُّم المبتدأ ثمَّ الخبر، وإذا كانت فعليَّة تقدَّم الفعلُ ثمَّ الفاعلُ ثم المفعول، ثمَّ غيره من الفضلات والتَّوابع[1]؛ فإذا قلنا مثلاً: (زيدٌ قائمٌ) كانت على أصل التَّرتيب، ومثلها في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**﴾[الفتح:29]. وإذا قلنا: (قامَ زيدٌ)كان هذا الأصل في ترتيب الجملة الفعليَّة، ومثله في الذِّكر قول الله ﷻ: ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى**﴾[القصص:20]، فهي على الأصل.

الفرع الثَّاني: التَّقديم والتَّأخير خلاف الأصل وله أغراضٌ بلاغيَّةٌ كثيرةٌ:

فإذا خُولِفَ الأصل (التَّرتيب)؛ أصبح بين عناصر التَّركيبِ (تقديمٌ وتأخيرٌ)، وهذا التَّقديم والتَّأخير ليس اعتباطيًّا، وإنَّما هو لأغراضٍ بلاغيَّة كثيرةٍ، وقد ضبطها النُّحاةُ والبلاغيُّون من قبلُ ببابين كبيرين ينتظمان تحتهما هذه الأغراضَ المتعدِّدةَ[2].

أ– الباب الأوَّل: تقديم المعمول على عامله؛ كأن يتقدَّم المفعول به على الفعل، أو الجارُّ والمجرور أو الظَّرف على فعلهما، أو الخبر على المبتدأ، وهكذا.

ب– الباب الثَّاني: تقديم أجزاء الجملة بعضها على بعضٍ من غير العامل؛ كتقديم المفعول على الفاعل، أو تقديم بعض متعلِّقات الفعل كالجار والمجرور والظرف بعضها على بعض.

– أمَّا تقديمُ المعمول على عامله؛ فإنَّ العموم الأغلب فيه أن يُفيد من النَّاحية البلاغيَّة: الإختصاص.

وأمَّا تقديمُ أجزاء الجملةِ بعضِها على بعضٍ؛ فإنَّ له أغراضًا بلاغيَّةً كثيرةً، قال عبد القاهر الجرجانيُّ رحمه الله (ت:471هـ): «هو بابٌ كثير الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسعُ التصرُّفِ، بعيدُ الغاية، لا يزالُ يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويُفضِي بك إلى لطيفةٍ، ولا تزال ترى شعرًا يُروقُك مسمعه، ويلطُفُ لديك موقعه، ثمَّ تنظر، فتجدُ سبب أنْ راقَكَ ولطُفَ عندك أنْ قُدِّمَ فيه شيءٌ، وحُوِّلَ اللَّفظُ عن

1

2

مكانٍ إلى مكانٍ»[1]. إلاَّ أنَّ الرَّابطَ الجامع بين هذه الأغراض الكثيرة، أنَّ تقديم ما يُقدَّمُ منها إنَّما يكون للعناية والاِهتمام، قال سيبويهِ رحمه الله (ت:180هـ): «كأنَّهم إنَّما يُقدِّمون الَّذي بيانُهُ أهمُّ لهم، وهم ببيانه أعنى»[2].

الفرع الثَّالث: أمثلةٌ تطبيقيَّةٌ من القرآن الكريم على نوعي التَّقديم والتَّأخير:

أ- أمَّا النَّوع الأوَّلُ: وهو تقديم المعمول على عامله إفادةً للاِختصاص؛ فكثيرٌ في القرآن الكريم، ومن أمثلته:

1- قوله تعالى: ﴿**بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾[الزمر:66]، ومثله: ﴿**وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾[البقرة:172]، قُدِّم المفعول به في الآيتين (اللهَ، إيَّاه) على فعل العبادة؛ لاختصاص العبادة بالله ﷻ؛ إذ لا معبود حقٌّ إلاَّ هو ﷻ.

2- ومثلُ هذا فعل التَّوكُّل والإنابة، وما شاكلها من أنواع العبادة الَّتي لا تُصرَفُ إلاَّ لله ﷻ؛ من قبيل قوله ﷻ: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾[إبراهيم:12]، وقوله: ﴿**عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ**﴾[الأعراف:89]، وقوله: ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[هود:88].

3- ومثلُه أيضًا، اختصاصه سبحانه بعلم الغيب، ومن جُملته علمُ السَّاعة، كما في قوله ﷻ: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ**﴾[الانعام:59]، وقوله: ﴿**إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ**﴾[فصلت:47].

ومن طريفِ ما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام؛ أنَّ بعضَ السِّياقات في القرآن الكريم، يجتمعُ فيها الأصل (وهو التَّرتيب)، والفرعُ (وهو التَّقديم والتَّأخير)، وكلٌّ منهما أنسبُ شيءٍ في محلِّهِ، ومن ذلك:

- قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[الفاتحة:5-6]، فتقديم المفعول (إيَّاك)، في الموضعين في الآية الأولى، أنسبُ ما يكونُ، لأنَّ العبادة لا تكون إلاَّ لله، والاِستعانةَ لا تكونُ إلاَّ به سبحانه.

1

2

وأمَّا الآية الثَّانية؛ ففيها طلَبُ الهداية، وقد جاء تركيبُ الآية النَّحويُّ على أصل ترتيب الجملة الفعليَّة، لأنَّ طلب الهداية لا يصحُّ فيه الإختصاصُ، فأنت لا تقول: اللهمَّ اهدني وحدي، أو: اللهم خُصَّني بالهداية من دون النَّاس.

– ومنه أيضًا قول الله ﷻ: ﴿**قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا**﴾[الملك:29]، فجُمِع في هذه الآية بين الأصل (التَّرتيب) في قوله: (ءامنَّا به)، وبين الفرع (التقديم والتَّأخير) في قوله: (وعليه توكلنا)، وكلٌّ منهما أنسبُ شيءٍ في موضعه؛ إذ الإيمانُ لا يختصُّ بالله ﷻ حتى يجمع معه أركان الإيمان الأخرى، فيما التَّوكُّل لا يكون إلاَّ على الله ﷻ؛ فهو مختصٌّ به سبحانه[1].

ب– وأمَّا النَّوع الثَّاني؛ وهو تقديم بعضِ أجزاء الجملة على بعضٍ، فإنَّ الجامع بينها كما أسلفنا هو تقديمُ ما به العناية والإهتمام، ولكنْ يبقى أن يُبَيَّنَ في كلِّ موضعٍ على حِدَةٍ، لِمَ كانت العناية والإهتمامُ بهذا اللفظ دون غيره؟ ولهذا النَّوع من التَّقديم والتَّأخيرُ أغراضٌ بلاغيَّةٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم، ومن أمثلتها:

1– التَّقديم بالقِدَم والأوَّليَّة في الوجود: ومن ذلك:

– قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:56]، فإنَّ خلق الجنِّ كما هو معلوم قبل الإنس، بدليل: ﴿**وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ**﴾[الحجر:27].

– ومثله قوله سبحانه في آية الكرسيِّ: ﴿**لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ**﴾[البقرة:255]، قدَّم السِّنةَ (وهي النعاس) على النَّوم؛ لأنَّ النُّعاس يسبقُ النَّوم في الوجود.

2– التَّقديمُ بالشَّرف والمزيَّة: ومن ذلك:

– قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾[النساء:29]، فقدَّم الله على الرَّسول، ثمَّ قدَّم السُّعداءَ من خلقه بحسب تفاضلهم؛ فبدأ بالأفضل وهم الأنبياء، ثمَّ مَنْ دُونهم وهم الصِّدِّيقون، ثمَّ الشُّهداء، ثمَّ الصَّالحون.

– وهناكَ وجهٌ آخرُ؛ وهو أنَّه رتَّبَ طوائف المنعَمِ عليهم الأربعة من الأقلِّ إلى الأكثر، فإنَّ العبادَ كلَّما ترقَّوا في مدارج الكمال قلَّ صنفُهم.

1

– ولعلَّ منه قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا**﴾[الأحزاب:7]، فبدأ بالنبيِّ ﷺ لأنَّه أفضلُهم، ثمَّ باقي التَّرتيب إنَّما هو على الأسبقيَّة الزَّمنيَّة لا على الفضل والمزيَّة.

3- **التَّقديم على حسب القلَّة والكثرة:** وهذا على ضربين:

أ- فقد يكون التَّدرُّج من القلَّة إلى الكثرة، ومثاله:

– قول الله ﷻ: ﴿**وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾[البقرة:125]، إذ ذُكِرت في الآية الكريمة أربع طوائف مُرتَّبةً من الأقلِّ إلى الأكثر.

فالطَّائفون أقلُّ من العاكفين؛ إذ الطَّوافُ لا يكون إلاَّ حول الكعبة، والعكوف يكون في المساجد عمومًا.

ثمَّ العاكفون أقلُّ من الرَّاكعين، لأنَّ الرُّكوع بمعنى الصَّلاة، والصَّلاة تكون في كلِّ محلٍّ من الأرض طاهرٍ، قال ﷺ: (**وجُعِلت لي الأرضُ مسجدًا وطَهُورًا**)[1]، والإعتكاف لا يكون إلاَّ في المساجدِ ﴿**وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ**﴾[البقرة:187].

ثمَّ الرَّاكعون أقلُّ من السَّاجدين لأنَّ الرُّكوع مرَّةٌ واحدة في الرَّكعة، والسُّجود مرتان، ثمَّ قد يكون سجود ليس له ركوعٌ، كسجود التلاوة وسجود الشكر، فيما الرُّكوع لا يكون إلاَّ في صلاة.

ثمَّ ختم بالسَّاجدين لأنهم الأكثر، فهو تدرج من القلَّة إلى الكثرة[2].

– وفي هذه الآية وجهٌ أخرُ، وهو أنَّ الكلام في الآية عن البيت الحرام، فقدَّم هؤلاء الطَّوائف حسب قربهم من البيت وتعلقهم به؛ فبدأ بالطَّائفين لأنهم أقربُ المذكورين بالبيت، إذ الطَّواف لا يكون إلاَّ حوله. ثمَّ ثنَّى بالعاكفين في هذا البيت وهم أبعد قليلاً، ثمَّ ثلَّث بالرَّكع السُّجود؛ وهم المصلُّون الَّذين يتوجَّهون إلى هذا البيت في صلاتهم أينما كانوا من الأرض[3].

– وقريبٌ من هذا في التدرج من القَّة إلى الكثرة، قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[الحج:77]، فبدأ بالركوع لأنه أقل المذكورات – على ما ذكرنا في المثال السابق –، ثم السجد لأنه أكثر، ثم عبادة الرب على العموم، ثم فعل الخير وهو أعمُّ.

1

2

3

ب- وقد يكون التَّدرُّج مُنعكسًا من الكثرة إلى القلَّة؛ ومثاله في القرآن الكريم:

- قوله تعالى: ﴿**يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾[آل عمران:43]، فبدأ بالقنوت لأنه عموم العبادة، ثمَّ السجود لأنه عبادة مخصوصةٌ، ثم الركوع لأنه أقل وأخص.

- ومثله قوله سبحانه: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ**﴾[التغابن:2]، فقدَّم الكفار على المؤمنين لأنَّهم أكثر بدليل: ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾[يوسف:103].

- وقريبٌ منه قوله ﷻ: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**﴾[فاطر:32].

*** ثُمَّ إنَّ هناك مواضعَ يكادُ يتَّحدُ فيها التَّركيبُ في الآيتين، ولكنْ تتقدَّمُ كلمةٌ أو جملة في الأولى، وتتأخَّرُ في الأخرى حسب ما يقتضيه السياق، ومن ذلك:**

- قوله ﷻ في سورة الأنعام: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾[الانعام:102] مع قوله سبحانه في سورة غافر: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾[غافر:62]، قدَّم في آية الأنعام جملة (لا إله إلا هو) على (خالق كل شيء)، فيما انعكست في آية غافر؛ فقدَّم جملة (خالق كل شيء) على (لا إله إلا هو). قال الكرمانيُّ رحمه الله (ت: نحو 505هـ): «فقدم في كل سورة ما يقتضيه قبله من الآيات»[1].

ذلك أنَّ السِّياق في سورة الأنعام في الإنكار على الشرك بالله وتنزيهه سبحانه عن الصاحبة والولد، والدعوة إلى توحيده، إذ جاء قبلها: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[الأنعام:100-101]، فقدَّم (لا إله إلا هو) على (خالق كل شيء)، وهو أنسب شيء للمقام.

فيما السياق في سورة غافر في ذكر الخلق وتعداد النعم؛ من مثل قوله سبحانه: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[غافر:57]، و قوله ﷻ: ﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**

1

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[غافر:61]، فناسب تقديم (خالق كل شيء) على (لا إله إلا هو)[1].

– قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾[آل عمران:126] مع قوله في سورة الأنفال: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال:10]. مع أنَّ الموضوع متَّحدٌ في الموضعين، وهو الكلام عن غزوة بدر، إلاَّ أنَّ زاوية النَّظر مختلفة؛ إذ موضع آل عمران ذُكرت فيه توطئة لذكر غزوة أحد التي أصابهم فيها القرح، فالمقام مقام مسح على القلوب وطمأنة لها، فناسب تقديم (قلوبكم) على (به)، فيما المقام في الأنفال مقام الاِنتصار وإبراز دور الإمداد الرباني فكان الأنسب تقديم (به) على القلوب، والضمير يعود على الإمداد[2].

– قوله ﷻ في سورة النحل: ﴿**وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[النحل:14] مع قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿**وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[فاطر:12]. قّدم (مواخر) على الجار والمجرور في النحل، وقدم (فيه) على (مواخر) في فاطر؛ ذلك أنه تقدم الكلام في النحل على وسائط النقل فذكر الأنعام وأنها تحمل الأثقال وذكر الخيل والبغال والحمير نركبها وزينة ثم ذكر الفلك وهي واسطة نقل أيضاً، فناسب تقديم (المواخر=السفن) لأنها منها. فيما الكلام هنا على البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم. فلما كان الكلام على البحر قدم ضمير البحر على المواخر فقال: (وترى الفلك فيه مواخر)[3].

والأمثلة على هذه القضيَّة كثيرةٌ جدًّا، ولكن اجتزأنا بهذا القدر، لِنَدُلَّ به على شيء من بلاغة القرآن الكريم.

1
2
3